مجلة عصور الجديدة– فصلية صنف ج– المجلد 10 – العدد 2 (جوان) 1441هـ/2020م
ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

مأساة الموريسكيين بين اجتهاد الفتوى وغياب القوة العسكرية 906- 950هـ/1500- 1543م

The Tragedy of the Moors between the jurisprudence of the Fatwa and the absence of military force (906-950h/1500-1543g)

اسم ولقب المؤلف المرسل: فاطمة الزهراء حميش - hamiche Fatima zohra صص211- 228
الدّرجة والعنوان المهني: طالبة دكتوراه ل.م.د في التّاريخ الوسيط- جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله.
البريد الإلكتروني: fatimazohra.hamiche44@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/30 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 19/ 03/ 2020

الملخّص بالعربية: نحاول من خلال هذه البحث التطرق إلى واحدة من أحلك المحن التي عرفها التاريخ الإنساني بصفة عامة والتاريخ الإسلامي بصفة خاصة التي وقعت للموريسكيين الأندلسيين الذين اختاروا البقاء في الأندلس بعد سقوط مملكة غرناطة سنة 897هـ/1492م في يد الإسبان، من خلال دراستنا لبعض رسائل الاستصراخ والاستنجاد التي أرسلوها بعد نقض الإسبان لمعاهدة التسليم، وتعرضهم للتنصير القسري ودفع الضرائب والمغارم الثقيلة، وإجبارهم على التخلي عن ممتلكاتهم، وترحيلهم من مساكنهم، وغيرها من الإجراءات القاسية التي أسس الإسبان من أجل تنفيذها محاكم خاصة سميت "محاكم التفتيش" التي ارتكبت في حق هذه الأقلية جرائم وانتهاكات قل لها مثيل.

الرسالة الأولى أرسلت للفقيه أحمد بن أبي جمعة المغراوي من فقهاء مدينة وهران بالمغرب الأوسط، ورسالة أخرى متزامنة معها أرسلت للسلطان العثماني بايزيد الثاني، أما الرسالة الثالثة فأرسلت بعد عدة سنوات إلى السلطان سليمان القانوني.

في هذا البحث سنقوم بتحليل مضمون الرسائل، وسندرس ردود الأفعال المختلفة والمتباينة، كما سنحاول إماطة اللثام عن الأسباب التي أخرت أو منعت التدخل العسكري سواء من العدوة أو من الدولة العثمانية التي كانت في تلك الفترة الدولة الإسلامية الوحيدة القادرة على إنقاذ الموريسكيين من هذه المحرقة، واسترجاع الأندلس

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

لحوزة المسلمين من جديد، بخاصة بعد ضمها للجزائر وتونس وليبيا، وسيطرتها الكلية على حوض البحر الأبيض المتوسط.

الكلمات المفتاحية: الموريسكيون- إسبانيا- القوة العسكرية- العثمانيون- فتوى.

Abstract: *This research tries to deal with one of the darkest adversities that human history has ever knew in general and Islamic history in particular, That happened to the Moriscos and they were the Andalusians who chose to remain in al-Andalus after the Fall of the kingdom of Granada in the hands of the Spanish in 1482AD/897AH.*

Through the study of some letters the Moriscos sent after the Spanish breached the Handover Treaty and being forced to convert to christianity, to pay taxes and heavy fines. They were also obliged to abandon their properties, to deport and were exposed to other tough measures and acts. The Spanish established for those purposes special courts; the latter were referred to as the Inquisition that committed unprecedented crimes and violations against this minority.

The first letter was sent to Fakih- Islamic legislator- Ahmad Ben abi Jumaa Elmaghraoui: one of the Muslim legislators of the city of Oran in Central Maghreb and the other concurrent letter was sent to the Ottoman Sultan Bayzid II ,were as the third letter was sent to sultan Suleiman the Magnificent.

In this study; we analyse the content of the letters and examine the different reactions. Additionally; we try to uncover the causes that delayed or obstructed the military intervention either from Maghreb or the Ottoman Empire that was the only Islamic State capable of saving the Moriscos from this holocaust and that was able to regain al-Andalus back to Muslims especially after annexing Algeria, Tunisia and Libya under its total dominance over the Mediterranean Basin.

Keywords: The Moriscos- Spain- Military force- Ottomans- Fatwa.

المقدمة: تقلص حكم المسلمين في الأندلس مع نهاية القرن السابع للهجرة/الثالث عشر الميلادي، واقتصر على مملكة غرناطة (Granada) في الجنوب الشرقي التي ضمت بضع مدن فقط هي: غرناطة، مالقة (Malaga)، بسطة (Baza)، والتي كانت تحت حكم أمراء بني الأحمر[1]، هذه المملكة الفتية لم تصمد طويلا أمام هجمات الإسبان المتتالية لتسقط في أيديهم سنة 897هـ/1492م بتوفر العديد من العوامل؛ فبينما كان أمراء بني الأحمر يتناحرون على كرسي العرش، وينغمسون في اللهو والمجون، كان الإسبان يعلنون وحدتهم، ويعدون العدة لبسط سيطرتهم على ما تبقى من المدن الأندلسية، وفي هذا يقول المقري: «واستمر الأمر بالجزيرة على هذه الحالة مدة، والمسلمون لا يزدادون إلا ضعفا، والعدو تكالبا وشدة حتى استولى على الجزيرة بأسرها"[2].

بعد وفاة هنري (Henry) ملك إمارة قشتالة (Castilla) سنة 1474م تربعت أخته إيزابيلا (Isabella) على العرش بعد معارضة النبلاء لاعتلاء ابنته خوانا (Juana)، وكانت إيزابيلا قد تزوجت سنة 1469م من ابن عمها فرناندو الأراجوني (Fernando)[3] الذي بدوره تمكن من الحصول على عرش إمارة أراجون (AragÓn) سنة 1479م بعد تنازل والده خوان الثاني (Juan II) عن العرش عند بلوغه الثمانين من عمره، وفقدانه لبصره، وهكذا اتحدت مملكتا قشتالة وأراجون، وبدأ فرناندو وإيزابيلا في العمل على توحيد إسبانيا[4] ليس هذا فحسب، بل أعطوا لحربهم مع المسلمين الصبغة الدينية.

بدأ الإسبان يزحفون ويستولون على المدن الأندلسية الواحدة تلوى الأخرى، وكانت البداية بجبل الفتح (Gibraltar) سنة 866هـ/1461م، وعلى الحمة (Alhama) سنة 887هـ /1482م، ومدينة مالقة (Malaga) سنة 892هـ/1486م، ولم تكد تصل سنة 895هـ/ 1489م حتى بسط النصارى يدهم على معظم بلاد الأندلس[5]، وبقيت مدينة غرناطة لوحدها تواجه مصيرها المحتوم، حيث قام النصارى بحصارها لأكثر من سنة، وأمرت الملكة إيزابيلا ببناء معسكرات للجنود بدل الخيام حتى تضعف معنويات المسلمين، وتثبت لهم أنهم جاؤوا هذه المرة ولن يعودوا أدراجهم إلا وغرناطة تحت سيطرتهم[6].

عاش الشعب الأندلسي خلال هذا الحصار محنة عظيمة لم يسبق لها مثيل، ويصور لنا مؤلف مجهول حالة الأندلسيين المحاصرين الذين تضرروا منه بسبب الجوع والعطش حيث أغلق الإسبان عليهم كل المنافذ، وطال الأمر فلم يصلهم المدد من الأشقاء في العدوة رغم استنجادهم بهم، يقول: "إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا"، وبالمقابل ذكر أن الإسبان كانوا يحصلون على العون من البابوية والدول الأوروبية الأخرى، "وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا"[7]، وفي الأخير استسلم الأندلسيون، ووقع الأمير أبو عبد الله الصغير (882-897 هـ/1477-1491م) مع الملكين الإسبانيين فرناندو وإيزابيلا معاهدة التسليم في 25 نوفمبر 1491م التي تضمنت مجموعة من الشروط التي تعهد الملكان باحترامها، أهمها حماية المسلمين، واحترام معتقداتهم، "واشترط المسلمون على العدو الكافر شروطا أظهر قبولها، وبسط لهم جناح العدل حتى بلغت بزعمهم مأمولها"، وترك للمسلمين في البداية حرية الاختيار بين الرحيل

إلى إحدى مدن العدوة وبين البقاء في الأندلس مع الاحتفاظ بممتلكاتهم، واعدين إياهم بالعناية والاحترام.

عاش الأندلسيون مدة بشكل طبيعي محتفظين بممتلكاتهم من دون دفع الكراء أو الضرائب، "من غير أن يعطي كراء ولا مغرما، وأظهر للمسلمين العناية والاحترام"[8]، ثم نقض الإسبان المعاهدة، وبدأت أوضاع المسلمين المتخلفين في الأندلس تتغير من مسلمين إلى مدجنين، ثم إلى موريسكيين[9] بعد سنة 1500م بسبب صدور قرار التنصير الجماعي لهم[10] في 20 جويلية 1501م/4 محرم 907م من طرف الملكين الإسبانيين[11]، وبعد عام من ذلك، وبالضبط في 12 سبتمبر 1502م صدر مرسوم ملكي جديد يحظر على الناس التصرف في ممتلكاتهم قبل مضي سنتين، كما منعوا من مغادرة مملكة قشتالة إلا إلى أراجون والبرتغال (Portugal)، ثم أقيمت المحاكم[12] لمتابعة ومراقبة عملية التنصير، بخاصة وأنهم كانوا يعلمون جيدا بأن المسلمين واليهود لن يتخلوا عن دينهم بسهولة، وتفننوا في التعذيب والتنكيل والترويع[13]، في هذه الظروف العصيبة لم يجد الموريسكيون إلا الاستغاثة مجددا بأشقائهم في العدوة والمشرق؛ فأرسلوا رسائلا إلى جهات مختلفة ضمنوها ما يعانونه على يد الإسبان، ومن هنا نطرح الإشكالية التالية: لماذا أرسل الموريسكيون هذه الرسائل؟ هل كانت للاستنجاد وطلب التدخل العسكري أم كانوا يصبون من خلالها لغايات أخرى؟ وهل وجدت هذه الرسائل صدى واستجابة؟

1- رسالة الموريسكيين للفقيه أبي عبد الله المغراوي 910هـ/1504م: لا يمكننا معرفة عدد الرسائل التي أرسلها الموريسكيون بالضبط؛ فمن المرجح أن تكون بعضها قد ضاعت في خضم هذه المأساة الإنسانية؛ فقد كانت السلطات الإسبانية تبث الجواسيس في كل مكان لرصد المعلومات عن تحركات الموريسكيين، أو للحصول على مثل هذه الرسائل[14]، ومن بين الرسائل واحدة أرسلت إلى فقيه من مدينة وهران بالمغرب الأوسط هو أحمد بن أبي جمعة المغراوي، وإن كانت رسالتهم لم تصلنا لكن رد الفقيه المغراوي على الرسالة موجود، وقد نقله إلينا المؤرخ محمد عبد الله عنان في كتابه نهاية الأندلس، "وهي رسالة مؤثرة مؤرخة بتاريخ أول رجب سنة 910هـ/28 نوفمبر 1504م[15]، تضمنت فتوى طويلة فيها طرق للتعامل مع الوضع الجديد "التنصير القسري" دون التخلي عن دينهم، وممارسة شعائرهم الدينية.

وقبل الخوض في تفاصيل الفتوى التي رد بها المغراوي على رسالة الموريسكيين لابد لنا أن نتطرق لحياة هذا الفقيه لعلنا نجد بعض التفاصيل التي تعطينا إجابة عن سبب اختيار الموريسكيين له بالذات، لكن المعلومات عنه قليلة، ولم نظفر له إلا على ترجمة مقتضبة نقلها التنبكتي في كتابه نيل الابتهاج[16]، وترجمة نقلها محمد البشير ظافر الأزهري في كتابه يواقيت ثمينة، لكن من الواضح أنه اختلط عليه الأمر فنقل ترجمة لابنه أبو عبد الله محمد شقرون بدلا من والده، والدليل على ذلك سنة وفاته التي قال إنها كانت في "العشرة الثالثة من القرن العاشر"، وهي نفس سنة وفاة ابن الشيخ المغراوي[17]، والترجمة التي أفردها كل من الكتاني في كتابه فهرس الفهارس، وابن مخلوف في شجرة النور الزكية كانت أيضا لابنه[18].

ومن خلال المعلومات البسيطة التي عثرنا عليها أن الشيخ المغراوي واحد من فقهاء مدينة وهران بالمغرب الأوسط، عاش في القرن التاسع الهجري وبداية القرن العاشر، درس في تلمسان على يد نخبة من شيوخها منهم محمد بن يوسف السنوسي، كما كانت له رحلة علمية إلى تونس درس خلالها عند مجموعة من العلماء، وله كتاب في مجال التربية والتعليم وواجبات المعلمين اسمه "جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وأباء الصبيان"[19]، وكانت وفاته حسب التنبكتي سنة 917هـ/1533م[20].

اشتهر الشيخ المغراوي في أغلب الدراسات التاريخية بالفتوى التي أرسلها إلى الموريسكيين ردا على رسالتهم، وكانت الفتوى طويلة من عدة صفحات بدأها المغراوي بوصفه للأندلسيين "بالقابضين على دينهم كالقابض على الجمر"، أي أن المسلم في زمن المحن والفتن يصبح كالقابض على الجمر من شدة ما يصيبه من المحن والآلام من الأعداء لإبعاده عن دينه، مقتبسا ذلك من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر"[21].

وفي أغلب فقرات الرسالة يحثهم بالصبر على الأذى، ويقدم لهم الحلول والطرق للتعامل مع النصارى دون التخلي عن دينهم، والقيام بالفرائض الدينية كالصلاة والصوم والزكاة خفية عن أعينهم؛ "فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوما في البحور،

إن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحا بالأيدي للحيطان..."[22].

وفي الأخير يطلب منهم إرسال رسائل أخرى كلما تعسر عليهم أمر ما، وسيقوم هو بإرشادهم، "وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون"، ثم يدعو الله أن يستعيد المسلمون الأندلس من جديد لتخليصهم من هذه المحنة، ويعلق آماله على الدولة العثمانية، "وأنا اسأل الله أن يديل الكرّة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام"[23]، لماذا أرسل الموريسكيون الرسالة إلى الفقيه المغراوي بالذات؟ وأين كان فقهاء الأندلس آنذاك؟ ألم يكونوا هم المرجعية الفقهية لأهل المغرب قبل هذا التاريخ؟ وما الهدف الذي سعى إليه الموريسكيون من خلال هذه الرسالة؟ هل كانت الفتوى أم وراءها دوافع أخرى؟

قد يكون السبب حاجتهم للفتوى خاصة إذا علمنا أن أغلب الفقهاء الأندلسيين قد غادروا مملكة غرناطة قبل سقوطها صوب المدن المغربية والمشرقية كأبي الحسن القلصادي (ت891هـ/1486م)، ومحمد المجاري (ت856هـ/1452م)، وشمس الدين الراعي (ت853هـ/1449م)، وأبي الحسن علي البياضي (ت912هـ/1506م)، وأحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي المشهور بالدقون (ت920هـ/1514م)، وأبي عبد الله بن الأزرق (ت895هـ /1489م)، ولم يتبقى منهم إلا البعض، وكان المؤلف المجهول قد ذكر بأن فقهاء غرناطة كانوا ضمن الوفد الذي توجه لمقابلة الأمير أبو عبد الله الصغير يطلبون منه التفاوض مع الإسبان لإنهاء الحصار المفروض عليهم[24]، ولم يذكر أسماء هؤلاء الفقهاء، ولا نعرف مصيرهم بعد سقوط غرناطة، ومن المرجح أنهم غادروها بعد ذلك.

لم تذكر أغلب المصادر إلا الفقيه محمد المواق (ت897هـ/1491م)[25]، الذي وصفه ابن مخلوف "بخاتمة علماء الأندلس والشيوخ الكبار"[26]، وقال عنه التنبكتي: "مفتي الحضرة وخطيبها وآخر الأئمة بها"[27]، ولما استولى النصارى على غرناطة كان على قيد الحياة، وشهد سقوطها؛ «فسألوا عمن هو المقدم بها في العلم فأشير بالمواق"، وتوفي بعد مدة قصيرة من ذلك وبالضبط في شهر شعبان سنة 897هـ/1491م، أي بعد خمسة أشهر فقط من سقوط غرناطة[28].

وبعد سقوط غرناطة تختفي أخبار العلماء تماما، وتقهقرت العلوم العقلية والنقلية التي كانت منتشرة سابقا في كل مكان؛ فأحرقت المصاحف، وأتلفت كل الكتب الدينية بموجب قرار صدر في 12 اكتوبر 1501 ينص على إحراق جميع الكتب التي لها علاقة بالإسلام[29]؛ وأقدم الكاردينال خمنيث على حرق أغلب الكتب والمخطوطات التي ورثتها غرناطة من المدن التي سقطت كقرطبة وإشبيلية وغيرهما، وكانت أكثر من مئة ألف مخطوط في شتى مجالات العلوم لم يسلم منها إلا عدد قليل من كتب الطب، "ولم يشفع لها الموضوع الذي تحتوي عليه، ولم تكن له أيه صلة بالقرآن في أحايين كثيرة"[30]؛ فهل يستطيع أي عالم أن يتحمل مثل هذه الإجراءات القاسية؟ من المرجح أن تكون هذه الحادثة سببا في رحيل من تبقى منهم.

غياب العلماء في الأندلس[31] دفع الموريسكيين لإرسال الرسالة للفقيه المغراوي حتى يزودهم بمثل هذه الفتوى التي تدعمهم وتقويهم على المحنة العظيمة التي أصابتهم في دينهم ولغتهم، وكان اجتهاد الفقيه المغراوي يتماشى مع حساسية الوضع الذي عاشه الموريسكيون، وبخاصة من استعصى عليهم الرحيل، وأجبرتهم الظروف على البقاء على عكس الفتوى التي أوردها عبد الواحد الونشريسي تحت عنوان "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر"، والذي أفتى فيها بعدم جواز بقاء المسلمين في بلاد تغلب عليها النصارى، وبضرورة الهجرة إلى بلاد المسلمين، ولم يأخذ بعين الاعتبار أن السواد الأعظم من هذه الفئة كانوا من الضعفاء غير القادرين على الهجرة.[32]

2- رسالة الموريسكيين للسلطان بايزيد الثاني: الرسالة الثانية أرسلت في نفس الفترة، وأوردها المقري التلمساني في كتابه أزهار الرياض، أرسلها الموريسكيون هذه المرة إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني (1481-1512)[33] يطلبون منه التدخل لإنقاذهم من بطش الإسبان، ولم يذكر لنا المقري تاريخ الرسالة، واكتفى بالقول إن الموريسكيين أرسلوها بعد استيلاء الإسبان على الأندلس، ولكن من الواضح أنها كانت مزامنة للرسالة التي أرسلت للفقيه المغراوي؛ فالسلطان العثماني بايزيد حكم إلى غاية سنة 1512 أي أن الرسالة قد تكون أرسلت إليه بين سنوات 1505 أو 1512م[34].

بدأ الموريسكيون رسالتهم بتوجيه الكلام للسلطان بايزيد الثاني، ووصفوه بعبارات تمجده وتعظمه معتبرين إياه سلطان المسلمين وناصرهم، "بحضرة مولانا وعمدة ديننا

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

ودنيانا السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام"[35]، وأتبعوا الرسالة بقصيدة طويلة سردوا فيها المحنة التي ألمت بهم بعد إجبارهم على التنصير؛ فأصبحوا غرباء في وطنهم بعدما كانوا أعزة، ولم يستثني الإسبان من التنكيل لا النساء ولا الشيوخ ولا الأطفال؛ فكشفوا حرمات النساء، وتعرضت اليافعات منهن للاغتصاب، وأجبروا على أكل لحم الخنزير والجيفة، وحرموا من الصلاة والصوم، ومن يقوم بذلك يحرق حيا، كما دنسوا المصاحف بالنجاسة وفضلات الحيوانات، وأحرقوا كل الكتب الدينية، وقاموا بقتل كل من يخالف أوامرهم حتى وصل بهم الأمر لإحراق مدن كاملة بسكانها كمدينة أندرش، وهذه بعض أبيات القصيدة:

سلام عليكم من وجوه تكشفت على جملة الأعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق يسوقهم اللباط قهرا لخلوة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من عجائز أكرهت على خنزير ولحم الجيفة

وفي آخر القصيدة يطلبون منه التدخل لرفع الغبن عنهم لأنه الأمل في خلاصهم من هذا الكرب والإذلال الذي أصابهم.

ومن عندكم نرجو زوال كروبنا وما نالنا من سوء حال وذلة[36]

ورغم قساوة الأخبار التي تضمنتها الرسالة، وإلحاح الموريسكيين على السلطان العثماني بايزيد الثاني التدخل العاجل لإنقاذهم، إلا أنه لم يحرك جيوشه لنصرتهم، وهذا لعدة أسباب:

أولا: تشير أغلب المصادر أن السلطان بايزيد الثاني لم يكن كوالده السلطان محمد الثاني الذي رفع راية الجهاد ونصرة الإسلام عاليا، وتمكن من فتح القسطنطينية سنة 1453م، بينما كان بيازيد يميل إلى السلم أكثر من الحرب محبا للعلوم الأدبية، لذلك كان يطلق عليه أغلب المؤرخين الأتراك اسم "بايزيد الصوفي"[37].

أما السبب الثاني: فهو اختياره المهادنة والابتعاد عن الحروب مع الأوروبيين، وحرصه على تنشيط العلاقات الدبلوماسية معهم، والتي كانت قبله تقتصر على البلاد الواقعة على الحدود فقط، لكن في عهده عقد علاقات دبلوماسية مع الباباوية، ومع

أغلب البلدان والممالك الأوروبية كفلورنسا ونابولي وفرنسا، والمجر، كما أبرم صلحا مع البندقية[38].

والسبب الثالث: هو انتشار الصراعات الداخلية، والتنافس على السلطة في الباب العالي بين السلطان بايزيد الثاني وأخيه جم[39] الطامح إلى الحكم، وبينه وبين ابنه سليم الذي تمكن في الأخير من الاستحواذ على السلطة، والتخلص من والده بعد تسميمه حسب أغلب المصادر[40].

3- جهود العثمانيين لإنقاذ الموريسكيين بعد السلطان بايزيد الثاني(1512-1535): كانت الدولة العثمانية الدولة الوحيدة القادرة على إنقاذ الموريسكيين[41]، وافتكاك الأندلس من الإسبان، وإرجاعها لحوزة المسلمين مرة أخرى؛ فقد كانت تمتلك من القوة العسكرية ما يؤهلها لذلك، بخاصة بعد ضمها للجزائر وتونس وليبيا، وسيطرتها على حوض البحر الأبيض المتوسط؛ فهل كانت هناك محاولات عثمانية لإنقاذ الموريسكيين بعد السلطان بايزيد الثاني؟

استمر الموريسكيون في مجابهة اضطهاد الإسبان لهم بمفردهم؛ فمنهم من رضي بالدجن وبقي في الأندلس، ومنهم من قرر الرحيل إلى المدن المغربية، ولم يكن اختيارهم هذا يسيرا؛ حيث كان أغلبهم يجازفون بالرحيل خفية، ولم يجدوا من يعينهم على ذلك إلا بعض البحارة الأتراك الذين كانوا ينشطون في حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة مستقلة عن السلطات العثمانية[42].

هؤلاء البحارة هم أربعة أشقاء- إسحاق وهو الأكبر وعروج وخضر المعروف باسم خير الدين وإلياس بربروس أي ذو "اللحية الحمراء"- يعود أصلهم إلى قلعة مدلي بجزيرة لسبوس باليونان، وبينما اختار إسحاق البقاء في قلعة مدلي، وإلياس الأخ الأصغر قتل في إحدى المعارك من طرف فرسان رودس، واصل عروج وخير الدين الاشتغال في مجال الجهاد البحري حيث دخلا في خدمة أمير تونس محمد الحفصي؛ فكانوا يأسرون المراكب التجارية المسيحية، ويأخذون ما فيها من بضائع، ويبيعون ركابها وملاحيها كرقيق[43].

كانت أنباء الجرائم الإسبانية تصل إلى الإخوة بربروس تباعا؛ فقد ذكر خير الدين في مذكراته بعضا منها، وقال بأن الموريسكيين وصل بهم الأمر لبناء مساجد تحت الأرض للتعبد فيها سرا وبعيدا عن أعين الإسبان، "لقد دمر الإسبان وأحرقوا جميع المساجد،

وصاروا كلما عثروا على مسلم صائم أو قائم إلا وعرضوه وأولاده للعذاب والإحراق"؛ فقام الأخوان عروج بالتدخل مرات عديدة لإنقاذ الكثير من الأندلسيين العالقين في عرض البحر، ومساعدتهم بنقلهم عبر سفنهم إلى الجزائر وتونس، "قمنا بحمل عدد كبير من المسلمين في السفن وإنقاذهم من أيدي الكفار، ونقلهم إلى الجزائر وتونس"[44]، وبعد ترحيلهم دخل الكثير منهم في خدمتهم، وأصبحوا أعوانا لهم في حروبهم ضد الأسطول الإسباني فيما بعد[45].

وبعد سنوات أصبح خير الدين بربروس أول بايلرباي (أمير الأمراء) في الجزائر (1520- 1535) لكنه افتقر للقوة العسكرية التي تمكنه من الزحف نحو إسبانيا من أجل إنقاذ الموريسكيين، كما أن الإسبان قاموا باحتلال أغلب المدن الساحلية بالمغرب الأقصى والأوسط لضرب أي محاولة لاسترداد الأندلس تنطلق من العدوة برعاية الدولة العثمانية؛ فقضى خير الدين فترة حكمه كلها في تحرير المدن الجزائرية من يد الإسبان بدعم كبير من السلطان سليم الأول (1512-1520)[46] بن بايزيد الثاني (1512-1520)[47].

4- رسالة الموريسكيين للسلطان سليمان القانوني 948هـ/1541م: جدد الموريسكيون طلب الدعم من العثمانيين مرة أخرى سنة 1541م، وأرسلوا رسالة[48] إلى السلطان سليمان القانوني (1520-1566): "السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب إكرامه وأفضاله"[49]، ولم تخلو هذه الرسالة أيضا من عبارات الاستعطاف مستعملين كلمات مؤثرة لوصف ما كانوا يعانونه على يد الإسبان؛ "فإن عبيدك الفقراء المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس...، رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم، باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان، دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين"، وذكروا في الرسالة أيضا معلومات عن عددهم، وقالوا بأنه بلغ ثلاثمئة وأربعة وستين ألف موزعين بين غرناطة ومدن مجاورة لها[50].

أشاد الموريسكيون في هذه الرسالة بالدور الذي قام به خير الدين بربروس، ووصفوه بـ"المجاهد في سبيل الله" و"ناصر الدين"، وتحدثوا عن سعيه الحثيث لنصرتهم وإنقاذهم في الوقت الذي خذلهم أهل المغرب حسب ما جاء في الرسالة، "وطالت بنا الأيام، وعاشت فينا يد النكاية والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل

الإيمان، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد في سبيل الله خير الدين...؛ فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سببا في خلاص الكثير من المسلمين"[51]، وبأنه جعل من الجزائر ملاذا لهم، واستقبلت مدن شرشال وتلمسان العديد منهم، وهذا هو سبب قيام الإسبان بحملة عسكرية على الجزائر حسبهم؛ "فلما سمع الكافر اللعين بذلك، ولم يقدر على منعنا بالسياسة والإهانة والحرق بالنيران...، واتفق رأيهم المعكوس وتدبيرهم المنكوس على قتال الجزائر، ليلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الاسلام ناصر"[52]، الحملة العسكرية التي ذكرها الموريسكيون هي حملة شارلكان على الجزائر سنة 1541م[53]، وهذا يؤكد أنهم كانوا مطلعين على كل الأحداث التي كانت تجري في المنطقة، "المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام"، كما كانوا يعلمون بمغادرة خير الدين بربروس للجزائر إذ طالبوا السلطان سليمان القانوني في آخر الرسالة بإعادة إرساله إلى الجزائر: "إرسال المجاهد خير الدين باشة إلى الجزائر؛ فإنه لهذا الوطن نعم ناصر"[54].

يبدو أن الرسالة حركت مشاعر الحمية لدى السلطان سليمان القانوني؛ فاستدعى خير الدين بربروس سنة 1543م، وطلب منه الالتحاق بالباب العالي لتقلد منصب قبطان داريا في الأسطول العثماني، وعند وصوله لتسلم مهامه الجديدة، وفي حفل أقيم على شرفه حضره السلطان وأغلب الوزراء ذكر خير الدين في مذكراته أن السلطان سليمان أخذه على انفراد، "وبعد أن انفض الاجتماع خلا بي السلطان خان، وأعلمني بأنه يريد غزو إسبانيا"[55]، لكن هذا المشروع ظل مجرد فكرة؛ فما الذي حدث بعدها بالضبط وحال دون تحقيقه؟

عند تتبع مسيرة السلطان سليمان القانوني نجد أنه بعث الجهاد ضد القوى الأوروبية، وخاض معهم حروبا طويلة، وانتعشت الفتوحات في عهده مرة أخرى، وربما هذا هو السبب الذي أبعده عن إنجاد الموريسكيين، كثرة حروبه وفتحه لجبهات كثيرة ليس في أوروبا فحسب، بل وفي بلاد العجم واليمن وبلاد المغرب؛ فخاض حربا ضد المجر، وقام بفتحها سنة 1521م[56]، كما فتح جزيرة رودوس في السنة الموالية[57]، وضرب حصارا طويلا على النمسا سنة 1529م[58]، وخاضت أساطيله حروبا بحرية مع الأميرال أندري دوريا[59]، ثم عرج على تبريز وبغداد ففتحهما سنة 1534م[60]، وتونس في السنة الموالية[61]، وانتقل بعد ذلك لافتكاك عدن من البرتغاليين سنة 1538م، وحاصر جزيرة هرمز وغيرها من الحروب والمعارك[62].

بالإضافة إلى هذا لم تخلو فترة حكمه من الدسائس والمنافسات داخل القصر بينه وبين أبنائه؛ ففي مدة وجيزة خسر السلطان سليمان ثلاثة من أولاده بسببها؛ فقد أمر بقتل ابنه

مصطفى سنة 1553م بسبب مكيدة حاكتها ضده إحدى زوجاته[63]، وبعد فترة قصيرة من هذه الحادثة التي هزت أركان الباب العالي فقد ابنه الثاني جهانكير الذي توفي حزنا على شقيقه مصطفى، وفي سنة 1561م أمر مجددا بقتل ابنه بايزيد وأبنائه الأربعة أورخان ومحمود وعبد الله وعثمان[64]، في خضم هذه الأحداث ضاع مشروع غزو إسبانيا، ولم يتمكن السلطان سليمان القانوني من تجسيده على أرض الواقع.

الخاتمة: عاش النصارى في الأندلس مئات السنين دون أن يتعرضوا لمكروه، ولما انتهى حكم المسلمين لم يحظ الأندلسيون بهذه المعاملة من طرف الإسبان الذين ارتكبوا في حقهم أبشع الجرائم، وأجبروهم على التخلي عن دينهم ولغتهم وممتلكاتهم.

لم يجد الموريسكيون من وسيلة إلا الاستنجاد، وطلب المدد والعون من الأشقاء في بلاد المغرب والمشرق؛ فأرسلوا رسائلا ضمنوها ما كانوا يتعرضون له من اضطهاد قل له مثيل.

لا نستطيع أن نحصر عدد الرسائل؛ فقد تكون بعضها ضاعت، ولم تصل إلى وجهتها، وتشابهت هذه الرسائل في وصف تفاصيل المحنة التي أصابتهم على يد الإسبان لكنها اختلفت في غايتها وتاريخ إرسالها.

واحدة من هذه الرسائل أرسلت لفقيه من مدينة وهران يستفتونه في كيفية التعامل مع إجراءات التنصير التي فرضت عليهم؛ فاجتهد الشيخ المغراوي في تقديم فتوى تتلاءم مع محنتهم على عكس علماء آخرين أفتوا بعدم جواز بقائهم في الأندلس بعد نهاية حكم المسلمين.

الرسالتان الباقيتان وجهت لسلاطين الدولة العثمانية: واحدة أرسلت للسلطان بايزيد الثاني، والثانية أرسلت بعد عدة سنوات للسلطان سليمان القانوني يطلبون فيها التدخل لحمايتهم، وإنقاذهم من الإبادة التي كانوا يتعرضون لها.

لم يحصل الموريسكيون على الدعم العسكري من الدولة العثمانية مثلما كانوا يأملون على الرغم من القوة التي تميزت بها الدولة في ذلك الوقت بسبب انشغال سلاطينها بالجهاد، وفتحهم لعدة جبهات في المشرق والمغرب وأوروبا.

الملاحق:

الملحق رقم 1: رسالة الموريسكيين إلى الفقيه المغراوي: الفتوى التي أرسلها الفقيه أبو عبد الله المغراوي إلى الموريسكيين المؤرخة في 1 رجب 910هـ/28 نوفمبر 1504م "الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله، من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيل السلف

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

الصالح في تحمل المشاق، وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا، وأن يعيننا وإياكم على مراعات حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، بعد السلام عليكم، من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده عبيد الله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني كان الله للجميع بلطفه وستره سائلا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة، والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكدا عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم؛ فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى؛ فاعلموا أن الأصنام خشب منجور، وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع، وأن الملك ملك الله، ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله؛ فاعبدوه واصطبروا لعبادته؛ فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوما في البحور، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحا بالأيدي للحيطان؛ فإن لم يمكن؛ فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد، إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به؛ فاقصدوا بالإيماء نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله عليه السلام؛ فأتوا منه ما استطعتم، وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية، وانووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب الخمر لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيرا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم، ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرم، وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم؛ فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وإنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغيرتموه، وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم، وتتصدقون بالباقي إن تبتم لله تعالى، وإن أكرهوكم على كلمة الكفر؛ فإن أمكنكم التورية والألغاز فافعلوا، والا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمدا فإنهم يقولون له ممد فاشتموا ممد، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه، وإن قالوا عيسى ابن الله فقولوها إن أكرهوكم، وانووا إسقاط مضاف أي عبد الله مريم معبود بحق، وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله فقولوها إكراها، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله لا يلزم أن يسكنه أو يحل به، وإن قالوا

قولوا مريم زوجة له فانووا بالضمير إبن عمها الذي تزوجها في بني إسرائيل، ثم فارقها قبل البناء، قاله السهيلي في تفسير المبهم من الرجال في القرآن، أو زوجها الله منه بقضائه وقدره، وإن قالوا عيسى توفي بالصلب فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو، وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون، وأنا أسأل الله أن يديل الكرّة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به، ولابد من جوابكم، والسلام عليكم جميعا، بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسع مائة، عرف الله خيره، يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى". (محمد عبد الله عنان، دولة الاسلام في الأندلس نهاية الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997، ج 4 صص342-344).

الملحق رقم 2: رسالة الموريسكيين للسلطان بايزيد الثاني: رسالة الموريسكيين للسلطان العثماني بايزيد "الحضرة العلية وصل الله سعادتها، وأعلى أنصارها، وأذل عداتها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب والعجم والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين، وسلطان البحرين، وحامي الذمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكهفنا وغياثنا، مولانا أبو يزيد، لازال ملكه موفور الأنصار، مقرونا بالانتصار، مخلد المآثر والآثار، مشهور المعالي والفخار، مستأثرا من الحسنات ما يضاعف الله به الأجل الجزيل، في الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد، مجردة على أعداء الدين من بأسها، ما يروي صدور السمر والصفاح وألسنة السلاح، بأذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخاير مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الاشهاد"، واتبعت الرسالة بقصيدة طويلة تجاوزت المئة بيت يصفون فيها ما كانوا يكابدونه على يد الإسبان. (شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939، ج1ص108 وما بعدها.)

الملحق رقم 3: رسالة الموريسكيين للسلطان سليمان القانوني: "بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه، يقبل مواطي الأقدام الشريفة التي ثراها إذا مر بالعيون الرمدة أبراها، ورحاب الأكف الكريمة التي كذا عطاها كذا،

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

إذا مر بالأرض الممحلة أثراها، أقدام شأنها السعي من الخيرات والقرابات، وأكف شأنها فعل الخيرات والمكرمات، أدام الله أيامها ونصر أعلامها، وأوطأ كذا ركابها أعناق الملحدين والمتمردين، وأنعشه في كل وقت بنصر وفتح مبين، نسأل كذا الله تعالى أن يجعله أركابا لم يزل ممتطيا مطايا السعيد، محفوفا بالسعود، قطبا للسيادة السلطانية عليه تدور وبه تسود، وأن يجعله دايما نسيم الخلافة العلية في منصب الوراثة، وحايز الفضيلة السنية من خدمة المساجد الثلاثة، وله ملك مصر وأنهارها، والشام وديارها، والحجاز وشرف مقدارها، وإلى حضرته مجتمع الرفاق من الأفاق، وإليها الأجسام بالرحلة والأفئدة بالأشواق، وعلى جمع تلك الحضرة العليا المحاسن الدين والدنيا، انعقد الإجماع والإصفاق- كذا، مولانا السلطان الملك الأشرف الأضخم الأرفع الأعرف الأعلم الأحلم الأرحم الأرف- كذا- الأجود الأكرم الأسمع الأعطف، قامع الملحدين، وقاطع دابر الطغاة- كذا- والبغاة- كذا- والمردة والمفسدين، ممهد طريق الحج والعمرة والزيارة، الفايز بشرف الدين والدنيا من الجهاد في سبيل الله، والسقاية في المسجد الحرام والعمارة، مطهر البسيطة من درن فسادها، ومظهر آيات الرأفة والرحمة في بلادها، سلطان الإسلام والمسلمين، عز الدنيا والدين، وظل الله على الخليقة أجمعين، السلطان بن السلطان بن السلطان، السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب إكرامه وأفضاله، وأدام نجم سعده المنير باهر الإشراق، وجعل سهم ضده الحقير لازم الإخفاق، وحفظ بشهب أولياء مجده من مردة النفاق جميع الأقطار والآفاق؛ فهو الإمام الهمام، والأسد الباسل الضرغام، الذي مهد الله تعالى بدولته البلاد، وأمن ببركة إيالته في مسالكها وممالكها العباد، ومزق به ثوب الفساد، وقطع بسيفه وسنانه وبادرتي قلمه الأعلى ولسانه دابر أهل العناد؛ فسعد الإسلام بدولته، واعتز دين الله العزيز في مدته، وخمدت نيران البغي بسعادته، وامتدت الأماني، وشمل الأمان بحسن سياسته، نسأل- كذا- الله تعالى أن يصل لسيدنا ومولانا عادت- كذا- نصره وتمكينه، ويريه قرة العين في دنياه ودينه وبعد: فإن عبيدكم الفقرا- كذا- المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس، وجملة عدتهم ثلثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من رسايهم بغرناطة وغيرها خمسون، والباقي من عامة المسلمين، رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم، باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين وما هم فيه من مكابدة الكفار، ومقاساة- كذا- التضييق والأضرار، وجور أهل الشرك أناء الليل وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار، قد تكالب العدو علينا، ومدد السوء والضرر إلينا، وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب، ورمونا عن قوس واحد بسهم صايب، وطالت

بنا الأيام، وعاشت فينا يد النكاية والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمعت أهل الإسلام على طاعة مولانا ومحبته بالخواطر والضمايز- كذا- وانتظم العدل والشرع والآمان في البادي والحاضر؛ فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان، ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان؛ فلما سمع الكافر اللعين بذلك، ولم يقدر على منعنا بالسياسة والإهانة والحرق بالنيران، علم أنا اخترنا المصيبة في الأهوال والأبدان، وآثرنا ديننا على ساير الأديان؛ فلما صدقت الضمايز، وبلغت القلوب الحناجر، خاف من عصبتنا واجتماع كلمتنا، وتركنا أموالنا وأوطاننا وهجرتنا وفرارنا إلى بلاد الإسلام لسلامة ديننا، تحاير في أمره، وجمع إليه أهل تدبيره وحزبه؛ فدبروا ومكروا، وهل يحيق المكر السيء إلا بأهله؟ واتفق رأيهم المعكوس وتدبيرهم المنكوس على قتال الجزائر، ليلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر؛ فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريح عاصف وموج قاصف- كذا؛ فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق قليل، والآن اشتد غيضهم على أهل الإسلام، وهم يتوسلون بالرهبان والأصنام، ونحن نتوسل بسيد الأنام إلى موجب الوجود ذو- كذا- الجلال والإكرام، وهم عازمين- كذا- على الجزائر، والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر، يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله، المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهي موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة، وطراز رونقها المجاهد في سبيل الله عبدكم الوزير الأجل خير الدين، الممتثل لأوامر مولانا، ونتاج عز الدنيا والدين؛ فإنه أحيا هذا الوطن وجميع النواحي والسكن، وأرعب قلوب الكفار، وخرب ديار المردة والفجار، وأظهر نظام السلطنة العثمانية وأحكام مولانا نصره الله حتى تزينت بها الديار والأمصار؛ فنرغب ونطلب من مولانا نصره الله فيما يراه من إرساله لهذا الوطن إن رءا- كذا- مولانا صلاح- كذا-؛ فذلك؛ فيكون ذلك غاية الإحسان لجميع أهل الإسلام، وقهر ونكاية لحزب الشيطان، وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوى- كذا- إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام، لا زال بالعز موصوف- كذا- وبالبهاء والنصر محفوف- كذا- بأن يغيثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشة- كذا- إلى الجزائر؛ فإنه لهذا الوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خايف وحاير- كذا- والسلام التام على المقام

الشريف العالي ورحمة الله، بتاريخ أوايل شهر شعبان أحد شهور سنة ثمانية وأربعين وتسعمائة باقيا راقيا في درجات العز والملك إلى أخر الدهر، مصونا في حرز كنف الله الحريز، وأن يخرق له العادة بطول بقاية، وما ذلك على الله بعزيز، ركاب حضرة الجود، ورواق العز الممدود، ومعدن الرأفة والحنان، ومأمن الخايف اللهفان، ومضمن أن الله يأمر بالعدل والإحسان، حضرة فخر ملوك البسيطة، ودرة تلك السلوك الوسيطة، كبير سلاطين الزمان، منيل أفانين الأماني والأمان، الملاذ الأعظم والثمال الأعصم، ذي العروة التي- كذا- لا تفصم، والحجة التي كذا- لا تخصم، الذي يعترف له القاصي والداني بالفضل على الإطلاق، يبوئه رتبة الأصالة والجلالة بالاستحقاق ولما لا وهو". (عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1989، ص34 وما بعدها.)

الفهارس:

1- يعود أصل بنوالأحمر إلى أرجونة من حصون قرطبة، وكانوا من أصحاب الوجاهة في ناحيتهم وينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج وكبيرهم أبوعبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي مؤسس الدولة النصرية ويلقب بالغالب بالله ويعرف بالشيخ وأبي الدبوس لمزيد من المعلومات أنظر عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000، ج4 ص218/لسان الدين بن الخطيب، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، المطبعة السلفية، القاهرة، 1347، ص30.----2- شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939، ج1 ص64.

3- عنان، المرجع السابق ، ص176.----4- نفسه، ص180.----5- المقري، المصدر السابق، ج1 ص66.----6- مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق ألفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 2002، ص37.----7- نفسه، ص40.----8- المقري، المصدر السابق، ج1 ص67.----9- الموريسكيون: ظهر هذا المصطلح في أوائل القرن السادس عشر وأطلق على المسلمين الذين اختاروا البقاء في وطنهم والخضوع لحكم المسيحيين واجراءات التنصير فيما بعد. لمزيد من المعلومات أنظر جمال عبد الكريم، الموريسكيون تاريخهم وأدبهم، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ص6 وما بعدها.

10- أنطونيو دومينغيث أورتيث، تاريخ الموريسكيين حياة ومأساة أقلية، ترجمة محمد بنياية، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي، 2013، ص20.----11- علي مظهر، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها، المكتبة العلمية، القاهرة، ص26.

12- يعود تاريخ إنشاء محاكم التفتيش إلى سنة 1329م حيث اجتمع رجال الكنيسة الكاثوليكية في مدينة تولوز، وقرروا تأسيس محكمة تحاكم كل من اتهم في دينه، وكل من كان على دين آخر مثل اليهود والبروتستانت والمسلمين المقيمين في أوروبا، وفي سنة 1333 اعطيت الأوامر إلى كل الكنائس الكاثوليكية بتعيين كاهن مهمته البحث عن المرتدين، وسمح له بالاستعانة بالجواسيس، وأطلق على هذه المحاكم في البداية الديوان المقدس، التفتيش المقدس، وعلى الرغم من وجود مثل هذه المحاكم في فرنسا وإيطاليا إلا أنها لم تقم بما قامت به المحاكم في إسبانيا والبرتغال؛ فقد قدر عدد ضحايا محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال بحوالي 900 ألف بين سنوات 1333 و1835م. لمزيد من المعلومات أنظر مظهر، المرجع السابق، صص51-52.

13- علي مظهر، المرجع السابق، ص27.----14- التميمي، المرجع السابق، ص27.----15- أنظر الملحق رقم 1----16- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، 1989، ص580.----17- محمد البشير ظافر الازهري، اليواقيت الثمينة في اعيان مذهب عالم المدينة، جمعية العروة الوثقى، 1324هـ/1905م، ص16.----18- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والاثبات، تحقيق احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، تونس، ج2 ص1065/محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج1 ص400.

19- أحمد بن ابي جمعة المغراوي، جامع جوامع الاختصار والتبيان، تحقيق أحمد جلولي البدوي ورابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص6.----20- التنبكتي، المصدر السابق، ص580.

21- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق رائد بن صبري بن ابي علقة، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 2015، ص450.----22- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص342.----23- نفسه، ص344.----24- مجهول، المصدر السابق، صص40-41.----25- التنبكتي، المصدر السابق، صص561-562.----26- ابن مخلوف، المصدر السابق، ج1 ص378.----التنبكتي، المصدر السابق، ص561.----28- التنبكتي، المصدر السابق، ص562.----29- المقري، المصدر السابق، ج1 ص112/دومينغيث أورتيث، المرجع السابق، ص25.----30- فون شاك، الفن العربي في اسبانيا وصقلية، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص126.----31- في تعليقه على فتوى عدم جواز بقاء المسلمين في بلاد تغلب عليها النصارى حمل حسين مؤنس ما أصاب الموريسكيين من محنة للفقهاء الذين رحلوا من الأندلس وتركوهم يجابهون حقد الاسبان بمفردهم «مسؤولية الشيوخ واضحة إذ لم يكفهم أن يفروا بأنفسهم مخلفين أهل دينهم بل حرموا البقاء على من أراده من الرؤساء وطلبوا إليهم الهجرة ومعنى ذلك ترك الضعفاء وحدهم يفعل العدوبهم ما يريد". لمزيد من المعلومات أنظر أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد التلمساني الونشريسي، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 1996، ص17.----32- نفسه، ص22 وما بعدها.

33- السلطان بايزيد الثاني (1481-1512) ثامن سلاطين الدولة العثمانية ابن السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية 1453، تميزت فترة حكمه بالسلم وقلة الحروب لمزيد من المعلومات أنظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، 1981، ص179 وما بعدها.----34- أنظر الملحق رقم 2.----35- المقري، المصدر السابق، ج 1، ص108 وما بعدها.----36- نفسه، ج1 ص115.----37- المحامي، المصدر السابق، ص180.----38- نفسه، ص52.----39- نفسه، ص180.----40- نفسه، صص180.181.----41- والاسبان كانوا يدركون ذلك جيدا فقد ذكر مترجم كتاب العز والمنافع ابن القاسم الحجري أن الاسبان كانوا يخافون من الدولة العثمانية وتوارثوا ذلك الخوف جيلا بعد جيل «حصلت الروعة الموروثة خوفا منهم في قلوب النصارى «وظل هذا الخوف مسيطرا عليهم ليلا ونهارا لمدة طويلة وكان عندهم أمل في انقراض دولتهم عند وصولها إلى السلطان السادس عشر لكن أملهم خاب واستمرت الدولة. لمزيد من المعلومات أنظر ابن غانم الرباش الاندلسي، العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، تحقيق احسان الهندي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي، الامارات العربية المتحدة، 2013، ص258.

42- خير الدين بربروس، تحقيق محمد دراج، مذكرات خير الدين، شركة الأصالة، الجزائر، 2010، ص10.----43- بربروس، المصدر السابق، ص21/المحامي، المصدر السابق ، ص233.----44- نفسه، ص54.----45- مظهر، المرجع السابق، ص21.----46- السلطان سليم الأول (1512-1520): تاسع سلاطين الدولة العثمانية، كان يلقب بـ"ياوز" أي القاطع، في عهده ضمت الدولة العثمانية كل من مصر الشام والجزائر. لمزيد من المعلومات أنظر المحامي، المصدر السابق، ص188 وما بعدها. ----47- اسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، 1996، ص237.----48- أنظر الملحق رقم 3.

49- السلطان سليمان القانوني(1520-1566): عاشر سلاطين الدولة العثمانية، سمي بالقانوني لتفعيله بعض القوانين في فروع الحكومة، وإدخاله تعديلات في نظام العلماء والمدرسين، تميزت فترة حكمه بالفتوحات وكثرة الحروب. لمزيد من المعلومات أنظر المحامي، المصدر السابق، ص198 وما بعدها.----50- التميمي، المرجع السابق، ص36.----51- نفسه، صص36-37.----52- نفسه، ص37.----53- قام شارلكان بتنظيم حملة عسكرية لاحتلال الجزائر في شهر أكتوبر سنة 1541م، ضمت هذه الحملة 36 باخرة كان على متنها 12330 بحريا و23900 من أفراد الجيش البري، ورغم ضخامة هذه الحملة إلا أنها فشلت في الوصول إلى هدفها، وهو احتلال الجزائر إذ تحطمت اغلب السفن والعتاد الحربي من مدفعية وذخيرة بسبب صمود الجزائريين وسوء الأحوال الجوية. لمزيد من المعلومات أنظر مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ج3 ص64 وما بعدها.

54- التميمي، المرجع السابق، ص37.----55- بربروس، المصدر السابق، صص164- 165.----56- المحامي، المصدر السابق، ص199.----57- نفسه، ص205.----58- نفسه، ص216.----59- نفسه، صص218-219.----60- نفسه، ص222.----61- نفسه، ص232.----62- نفسه، ص239.----63- نفسه، ص246-247.-----64- نفسه، ص248.